

صفحة الدراسات في «البناء»، أنشئت لتكون مساحة للابحاث العلمية المتعلقة بشتى المواضيع ذات الصلة في قضايا الأمة والعالم العربي.

وهي إذ تنسع لمثل هذه الدراسات تبقى مجالاً مفتوحاً للحوار وطرح الإشكاليات الفكرية

الوهابية نشأةً ومساراً؛ جاسوس يحظر إماماً

د. نسيب بوضرغم

من هو محمد بن عبد الوهّاب؟

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان (القرقوزي) المولود عام 1703م والمتوفى عام 1791. كان من أتباع المذهب الحنبلي، ولكنه خرج عليه في كثير من قواعده تحت اسم دعوة التجديد. دعا المسلمين للتخلص (من البدع والخرافات)، ولسوف توضح في ما يلي ماذا كان يقصد بالبدع والخرافات.

ولكن قبل الوصول إلى مرحلة بث الدعوة الوهابية، لابد من الوقوع على حقيقة محمد بن عبد الوهاب وظروف تكوينه الفكري. إذ أورد الجاسوس الإنكليزي مستر همفري في مذكراته² تفاصيل عن هذا التكون سوف نعرضها مفصّلة.

لا بد من الإشارة سريعاً إلى حقيقة هذا الجاسوس، الذي لم يُقر، بنظري، لجاسوس آخر أن يُحدث ويؤثر تلقياً أحدث وأثر هذا الجاسوس، الأثر المتنامي في تاريخنا والذي لا يزال يحفر عميقاً ويمزق نسيج منظومتنا الوطنية والقومية والدينية، الأثر الذي سبب انهاراً من الدماء، سالت على الأرض العربية.

من هو همفري؟

يقول همفري: «أوفدتني وزارة المستعمرات عام 1710 إلى كل من مصر والعراق وطهران والحجاز والأستانة، لأجمع المعلومات الكافية التي تعرّض سيل تزييفات للمسلمين، ونشر السيطرة على بلاد الإسلام. وبعثت في الوقت نفسه تسعة آخرين من خيرة الموظفين لدى الوزارة ممن تكتمل فيهم الحيوية والنشاط والحماسة لسيطرة الحكومة على سائر أجزاء الإمبراطورية، وسائر بلاد المسلمين، وقد رُودتنا الوزارة بالمال الكافي، والمعلومات اللازمة، والخرائط الممكّنة، وأسماء الحكّام والعلماء ورؤساء القبائل، ولم أنسَ كلمة السكرتير حين ودعنا باسم المسيح فقال: «إن على نجاحكم يتوقف مستقبل بلادنا فأبديا ما عندكم من طاقات للتجاح» (ص 33).

ويورد همفري كيف وصل إلى الأستانة وتعلّم اللغة التركية، وكيف أعلن أنه مسلم واسمه محمد وكيف أخذ أصول الدين والعبادات من خلال درسه القرآن الكريم على يد الشيخ أحمد أندم وكيف عانى حتى تعلم عادات المسلمين.

مكث هذا الجاسوس مدة سنتين في الأستانة، وكان يعدّ تقريراً شهرياً لوزارة المستعمرات، وبعدها عاد إلى لندن يطلب من وزارة المستعمرات، هو والآخرون الذين أرسلوا معه إلى بلدان الشرق. كلف همفر من قبل سكرتير المستعمرات بمهمة ذات شقين، قائلًا له عليكَ:

«أن تكون نقطة الضعف عند المسلمين، والتي تتمكّن بها من أن ندخل جسمهم ونبدّد أوصالهم، فإن أساس النجاح على العدو هو هذا.

«أن تكون أنت المباشر لهذا العمل إذا ما وجدت نقطة الضعف، فإن قدرت على المهمة فسوف أطمئن إلى أنك أنجح الغملاء، وستستحق وسام الوزارة.» (المرجع السابق – ص 45).

يقول همفري: «وبعد ستة أشهر وجدت نفسي في البصرة» (ص –46).

وقد تعرّف جيداً إلى تكوينها الإثني والديني، فتذكّر ما قاله في سكرتير وزارة المستعمرات: «أعلم يا همفر أن هناك نزاعات طبيعية بين البشر منذ أن خلق الله هابيل وقابيل، وستبقى هذه النزاعات إلى أن يعود المسيح، مهتمك في هذه السفارة أن تعرّفني إلى هذه النزاعات بين المسلمين، وتعرف البركان المستعد للانفجار فيها، وتزوّد الوزارة بالمعلومات الدقيقة حول ذلك، وإن تمكّنت من تفجير النزاع كنت في قمة الخدمة لبريطانيا العظمى.» (المرجع السابق – ص 50-51).

ويكمل همفري: «لما وصلت إلى البصرة ذهبت لنؤي إلى أحد المساجد، وكان المصليّ لعالم من أهل السنة، عربي الأصل واسمه الشيخ عمّز الطائي» (ص –53). ولكن إمام المسجد شك بأمرة يوسف لونه وليجته، وقام يتقلّب من مكان إلى آخر خوفاً من اكتشاف أمره حتى وصل إلى محل نجار يتعاقد معه باجر زهيد وكان مالكه شيعياً يدعى عبد الرضا من خراسان.

انتخب الجاسوس همفري الفرصة وتعلّم اللغة الفارسية، وأخذ يشارك من يأتي إلى الدكان في الجدل والمناقشة، والهجوم اللاذع على حكومتهم وعلى السلطان العثماني.

يقول همفري: «في هذا الوقت راح شاب يتردّد إلى الدكان، ويعرف اللغات الثلاث – التركية والفارسية والعربية – وكان في زّي طلبة العلوم الدينية وكان يدعى محمد بن عبد الوهاب» (ص 57). ويتابع: «كان شاباً طموحاً للغاية، عصبي المزاج، ناقماً على الحكومة العثمانية، أما حكومة فارس فلم يكن له شأن بها. كان سبب صداقته مع مالك المحل عبد الرضا أن الاثنيين كانوا ناقمين على الخليفة. واني لا أعلم من أين كان هذا الشاب يعرف اللغة الفارسية، مع أنه كان من أهل السنة.» (ص –57).

ويكمل الجاسوس همفري: «كان محمد بن عبد الوهاب شاباً متحرراً بكل معنى الكلمة، لا يتعصب ضد الشيعة كما كانت الحال عند غالب أهل السنة، حيث يتعصبون ضد الشيعة، ويقولون أنهم ليسوا مسلمين، كما أنه لم يكن يرى أي وِزن لاتباع المذاهب الأربعة المتداوله بين أهل السنة ويقول: «إنها ما أنزل الله بها من سلطان».

ويتابع الجاسوس همفري قائلًا: «وكان الشاب

والسياسية وغيرها، تنشيطاً لدور الثقافة في الصيرورة الاجتماعية. علماً أن الآراء التي ترد على مساحة الصفحة تعبر عن أصحابها وليست بالضرورة مطابقة لقناعات الصحيفة.

إلا أنه انطلاقاً من القناعة الراسخة بضرورة خلق حوار فكري حول القضايا والإشكاليات كافة وما

البناء

1 / 2

قناعات دينية لديه، وكل ذلك توطئة للسيطرة عليه نهائياً.

يقول الجاسوس همفري: «قلت له ذات مرة: الجهاد ليس واجباً، قال: وكيف؟ وقد قال الله جاهد الكفار. قلت الله يقول: جاهد الكفار والمنافقين، فإذا كان الجهاد واجباً لماذا لم يجاهد الرسول بسنّاهه. قلت فجهد الكفار إذا واجب باللسان. قال: لكن الرسول حارب الكفار. قلت: حرب الرسول على الكفار كانت دفاعاً عن النفس، حيث أن الكفار أرادوا قتل الرسول فدفعهم، فهزّ محمد رأسه علامة الرضا.» (المرجع السابق – ص 63)

عندما تأكد همفري من تأثير رأيه في محمد بن عبد الوهاب قرّر أن يدخل إلى دائرة حساسة وهي النساء. إضافة إلى بعض المدعوين، يستمع إلى الحوار.

ويقول همفري: «أنا لم أخفظ الحوار العنيف الذي جرى بين محمد بن عبد الوهاب والشيخ، إنما حفظت مقتطفات منه. قال له القمي: إذا كنت متحرراً ومجتهداً كما تدعى فلماذا لا تتبع علياً كالشعبة؟ قال محمد: لأن علياً كان مثل عمر وغيره، ليس قوله حجة، وإنما الحجة الكتاب والسنة فقط. فقال القمي: ألمْ يقل الرسول أنا مدينة العلم وعليٌ بابها، إذا فارق بين علي وباقي الصحابة. قال محمد: إذا كان قول علي حجة، فلماذا لم يقل الرسول «كتاب الله وعلي بن أبي طالب». قال القمي: بل قال، حيث قال (ص): «كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، وعلي سيد العترة. فأنكر محمد بن عبد الوهاب أن يكون الرسول قد قال ذلك، لكن الشيخ القمي جاء التيه بأدلة مقنعة حتى سكت محمد ولم يجبر جواباً. لكن محمداً اعترض عليه وقال: «إذا قال الرسول «كتاب الله وعترتي»، فاين سنة الرسول؟ قال القمي: سُنّة الرسول هي شرح لكتاب الله، فلماذا قال الرسول «كتاب الله وعترتي»، أراد «كتاب الله بشرحه الذي هو السنة. قال محمد: ليس كلام العترة أيضاً شرحاً لكتاب الله؟ فما الحاجة إليهم؟ قال القمي: لما مات الرسول احتاجت الأمة إلى شرح للقرآن يطابق حاجات الزمن، لذا أرجع الرسول الأمة إلى الكتاب، كاصل، وإلى العترة كشرح له، في ما يتحدد من حاجات الزمن.» (المرجع السابق – ص 60-61)

لقد خلق هذا الحوار سروراً كبيراً في نفس الجاسوس، لأنه رأى فيه الصيد المطلوب.

لنسمع الجاسوس همفري يقول: «لقد أعجبت بهذا البحث أيما إعجاب وأريت أن محمداً الشاب أمام القمي، الشيخ الطاعن في السن، كالصقصور في يد الصيد لا يتكّن حراكاً.»

ويكمل همفري: «لقد وجدت في محمد بن عبد الوهاب ضالتي المنشودة، فإن تحرره وطموحه وتزيّره من مشايخ عصره، ورأيه المستقل الذي لا يهتم حتى بالخلفاء الأربعة، أماد ما يفهمه هو من القرآن والسنة، كان أكبر نقاط الضعف التي كنت أتمكّن من أن أسلّل منها إلى نفسه. وأين هذا الشاب المغرور من ذلك الشيخ التركي الذي درست عنده في تركيا، فإنه كان مثال السلف، كالجيل، لا يحزّكه شيء، إنه كان إذا أراد أن يأتي باسم أبي حنيفة قام وتوضّأ. أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فكان يزيدري بأبي حنيفة أيما إزراء، وكان يقول عن نفسه: «إنني أكثر فهما من أبي حنيفة.» وكان يقول «إن نصف كتاب البخاري باطل.» (المرجع نفسه – ص 62).

لقد وجد الجاسوس ضالّته، وربما نقطة الضعف الكبرى التي نّبّه إليها رئيسه، سكرتير وزارة المستعمرات.

يقول همفري: «لقد عقدت بيني وبين محمد أقوى الصلات والروابط، وكنت أنفخ فيه باستمرار وأبّين له أنه أكثر موهبة من (علي - عمر)، وأن الرسول لو كان حاضراً، لا اختارك خليفة له يوماً، وكنت أقول له دائماً: أمل تجديد الإسلام على يدك، فإنك المقصد الوحيد الذي يرجى به انتشال الإسلام من هذه السفلة.» (المرجع السابق – ص 62)

ويتابع الجاسوس: «وقد قرّرت مع محمد أن نناقش في تفسير القرآن على ضوء أفكارنا الخاصة، لا على ضوء فهم الصحابة والمذاهب والمشايع. كنا نقرأ القرآن ونكتلم عن نقاط فيه – كنت أقصد من وراءها إيقاع محمد في الفخ – وكان هو يسترسل في قبول آرائني ليظهر نفسه بمظهر المتحرر وليجب فتتي أكثر فأكثر.» (المرجع السابق – ص 62-63)

عندما افتتح الجاسوس همفري بيان رأيه صار مقبولاً عند محمد بن عبد الوهاب، أخذ يحاول تغيير



الجاسوس همفر قبل اعتناق الإسلام وبعده

والسياسية وغيرها، تنشيطاً لدور الثقافة في الصيرورة الاجتماعية. علماً أن الآراء التي ترد على مساحة الصفحة تعبر عن أصحابها وليست بالضرورة مطابقة لقناعات الصحيفة.

إلا أنه انطلاقاً من القناعة الراسخة بضرورة خلق حوار فكري حول القضايا والإشكاليات كافة وما

أكثرها، والتي ترفض نفسها على صاحب القرار والمتقف وقادة الرأي والمواطن في أي موقع كان،

كانت صفحة الدراسات في «البناء» هي الترجمة العملية لهذه القناعة آملين أن تشكل هذه الصفحة مساحة فكرية - سياسية تعنى بهوم الوطن والمواطن، تدرس الحاضر لترسم المستقبل.



محمد بن عبد الوهاب إلى جانب أعرانه



بيت محمد بن عبد الوهاب في حريملاء

ومنذ ذلك الحين كنت اتبعه في كل سفر وحضر، وكنت أهتم لأن تؤتي الشجرة ثمارها التي صرفت لأجلها أئمن أوقات شبابي.» (المرجع السابق – ص 68).

كان الجاسوس يرأسل وزارة المستعمرات شهرياً، ويضعها في تفاصيل مشروعه مع محمد بن عبد الوهاب، وكان يأتيه الجواب بالتشجيع. يقول همفري في هذا الصدد: «كنت أكتب بالتناجح إلى الوزارة كل شهر مرة، كما كانت عادتي منذ أن خرجت من لندن، وكان الجواب يأتيني بالتشجيع الكافي، فكنت أنا ومحمد نسير في الطريق الذي رسمناه بخطى سريعة، وكان أفاقه، لا في السفر ولا في الحضر، وكانت مهمتي أن أربي فيه روح الاستقلال والحرية وحالة التشكيك، وكنت أبشّره لئلا يمستقبل زاهر وأمدح فيه روحه الوقادة ونفسه النقادة.» (المرجع السابق – ص 69)

لقد لعب الجاسوس همفري على غرور محمد بن عبد الوهاب إلى أبعد الحدود، فهاكم ما يقول في هذا الصدد: «لقدت لمحمد ذات مرة حلماً، وقلت له: «إني رأيت البارية في المنام رسول الله على محمد بن عبد الوهاب أنه خليج كأفضل ما – ووصفته بما كنت سمعته من خطباء المنابر – جلسا على كرسي وحوله جماعة من العلماء، لم أعرف أحدا منهم، وإذا بي أراك قد دخلت ووجهك يشرق نوراً، فلما وصلت إلى الرسول قام الرسول إجلالاً، وقفل بين يمينك وقال لك يا محمد أنت سميئي ووارث علمي والقائم بقامي في إدارة شؤون الدين والدنيا. فقلت أنت: يا رسول الله إنني أخاف أن أظهر علمي على الناس. قال رسول الله لك: «لا تخف، إنك أنت الأعلى.»»

«فلما سمع محمد المنام كان أن يطير فرحاً، وسألني مركزاً، هل أنت صادق في رؤياك، وكلما سأل أجبتة بالإيجاب حتى اطمأن، وأظن أنه صمم منذ ذلك اليوم على إظهار أمره.» (المرجع السابق – ص 70).

بعد عودة الجاسوس همفري إلى لندن أبدى وزير المستعمرات ارتياحه الكبير من قدرة همفري على السيطرة على محمد بن عبد الوهاب.

يقول (همفري) عن لقائه وزير المستعمرات:

«حيث أبديت قلقني على مصير (محمد بن عبد الوهاب) بعدي، قال الوزير: اطمئن بان الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يزال على ما فارقته أنت من الآراء والأفكار. وقال الوزير: إن عملاء الوزارة يؤكدون أن الشيخ على ما كان. لكن سررت بنفسي: كيف أباح الشيخ محمد بدخيلة سرّه إليهم؟ وتهيبت أن أسأل الوزير عن ذلك، ثم تبّين لي في ما بعد حين النقيت الشيخ أن شخصاً يدعى عبد الكريم اتصل به في أصفهان وأنه أخ للشيخ محمد، يقصد أنا. أخبره عن تفاصيل أسراره، عن الشيخ محمد، وبذلك استطاع النفاذ إلى داخل قلبه. وقال محمد بن عبد الوهاب إن صفة لحقته إلى أصفهان وتتمتع بمتعة أخرى لمدة شهرين، وأن عبد الكريم رافقه إلى شيراز حيث هبّا لمحمد بن عبد الوهاب منعة أخرى أسبها أسية، أجمل وأكثر أوثقة من صفة وأنه قضى معها أسعد ساعات العمر.»

ويكمل الجاسوس: «وتبيّن لي في ما بعد أن عبد الكريم، اسم مستعار لأحد المسيحيين من جلفاء من نواحي أصفهان، كان من عملاء الوزارة، وأن أسية من يهود شيراز. كانت أيضاً هي الأخرى من عملاء الوزارة. كان نتيجة سيطرتنا، نحن الأربعة، على محمد بن عبد الوهاب أنه خليج كأفضل ما يمكن لما يرجى منه في المستقبل.» (المرجع السابق – ص 84-85).

بعد أن زوّدت وزارة المستعمرات الجاسوس همفري بوثيقة تتضمن الخطوط الأساسية لمشروع بريطانيا في الشرق أمرت الوزارة الجاسوس همفري بالتوجّه إلى العراق ليكمل الشوط مع محمد بن عبد الوهاب، وقد قال له سكرتير الوزارة: «إنه حصل من مختلف التقارير الواردة إليه من العملاء، أن الشيخ محمد أفضل شخص يمكنه الاعتماد عليه ليكون مطية لمأرب الوزارة.» (المرجع السابق – ص 121).

إن الشيخ قد قبل العرض المقدم إليه من بريطانيا، شرط «أن تحفظه من الحكومات وجهة نجد، ووصلتها لا بد من أن يهاجموه بالسبل كافة حينما يبدي آراءه وأفكاره، وأن يزوّده بالمال الكافي والسلاح إذا اقتضى الأمر ذلك، وأن نجعل له إسمارة، وإن تكن صغيرة، في أطراف بلاد نجد وقد قيلت الوزارة ذلك.» وأضاف السكرتير أن الوزارة (وزارة المستعمرات) قد وضعت خطة دقيقة لينفذها الشيخ محمد بن عبد الوهاب. (المرجع السابق – ص 122).

وما الخطوة الموضوعية من قبل وزارة المستعمرات البريطانية لينفذها محمد بن عبد الوهاب سوى مبادئ ستة قامت عليها الحركة الوهابية في الجزيرة العربية. فتكون هذه الحركة نتاجاً للسياسة البريطانية الهادفة إلى تزييق المنطقة وزرع الفتن فيها.

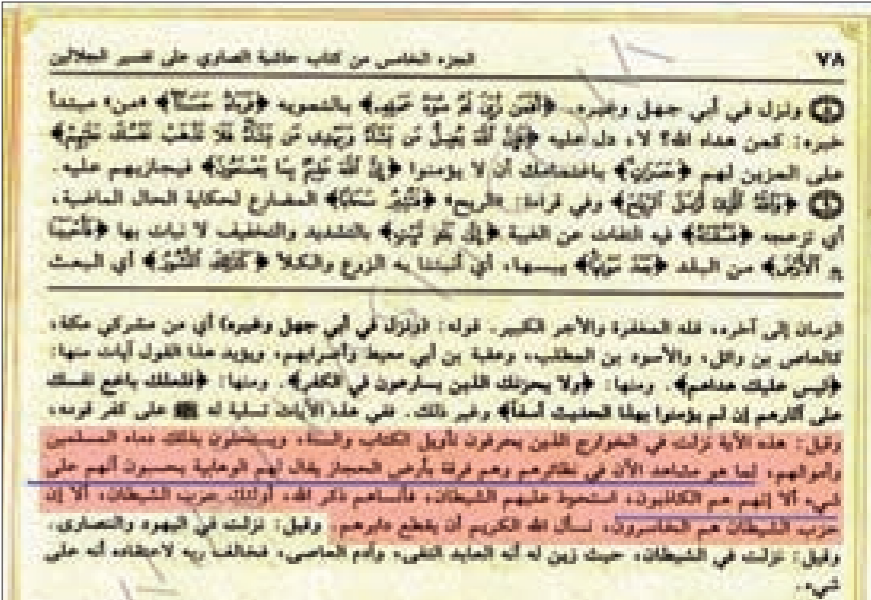
أما هذه المبادئ فهي: «تكفير كل المسلمين، وإباحتهم قتلهم، وسلب أموالهم، وهتك أعراضهم، وبيعهم في أسواق

- سليمان القرقوزي: لَقَب بالقرقوزي لأنه كان يبيع (القرقوز) وهو البلّيح في مدينة بورصة التركية، وهو يهودي من يهود الدومنة التركية.
- مذكرات (مستر همفري) – سيطرة الإنكليز لبنان – طبعة اولى 2005.

مراجع



آل سعود يدمرون أضرحة الصحابة



رأي علماء الدين بالوهابية